

طعم الوجع

قصص

إبراهيم عطية

طعم الوجع - قصص
الطبعة الأولى - أول يوليو 1998

الهيئة العامة لقصور الثقافة
إبداعات (نصف شهرية) - 64

إبداعات

المراسلات : باسم رئيس التحرير
على العنوان التالى ١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
رقم بريدى : ١١٥٦١

الإهداء

إلى
محمد أبو السيد أبى:
الذى علمنى الصبر والكفاح
وإلى نبض الحنان فى دمى .
أمى
التى جعلتنى أحب الحياة والناس
والأصدقاء «الحقيقيين»
ومن سقتنى الوجع اللذيذ

إبراهيم

الوجع

بحق مَنْ جمعنا.. من غير ميعاد في بلاد غريبة لا يهمني، بعدك ولا قربك...!

القلب موجوع من زمان.. والباقي طلل مهجور، عشش فيه الأسى.

ألم على أبيات ليلى بي الهوى زمنا.. حتى رحت أناجي الوجد في صحراء الجامعة.. ملأت سماء المدن عشقا وأرضها حتى طاف قلبي حولها وجن بناره.. ورحت أناجي الديار...،...

يا ديار....!

رحماك بالفتى القادم من الجنوب،

كان يسكن داراً من الطين..

أهله من الكادحين الفقراء.

ميراثهم الفأس...!

وفي آخر النهار يجلسون على المصاطب يتغنون بسيرة أبي زيد الهلالي سلامة، وأبي في جلبابه «الكشمير» يصب القهوة

التي تعدل المزاج.. دعوات المساكين من أهل البلد..

- «الله يرجعه لك مجبور الخاطر ويعلى مقامه..»

الجنيهات التى تأتى منه كل شهرين من قوت أخوتى الثمانية تغزل خيوط الأمل عباءة يلبسونها ويتفاخرون بها فى «النجع»...!

- «أخونا راح مصر يجيب الشهادة الكبيرة وحيبقى بيه كبير قوى..».

هل تذكرين بشط النيل موعدنا..؟!

ورائحة الطمى النوبى تفوح بها نسمات الهواء.. وصوت الصياد فى المركب يرمى شباكه.. يدندن بمواله...

«وإن هبت الريح قلت لمركبى سيرى

وأنا أصبر صبر الخشب تحت المناشير»

ناديت ليلى.. قومى إلى الدرس نكتب أسماءنا فى كتاب العشق أغنية للعندليب الأسمر.. «ندخل كتب الحكاوى.....،...

سجا الليل.. ووجهك على أوراق الورد الحمراء المتناثرة وقاعات الدرس فاضت عشقا..!

والقصور المشيدة فى الصحراء بامتداد الطريق، وحناء النيل،

فى كف «قطر الندى» نخلة تميل فى حضن الترعة، وشمس ترتدى الحسن، وساقيه تروى الزرع وصبايا يحملن الجرار.. «عطشان يا صبايا دلونى على السبيل..»، ونغمات الناى تهز قلاع المركب، تغسل – الآه –، وفى جسدى قداس النار.. يا نار كونى برداً وسلاماً..

« يا مين يجيب لى حبيبى وياخد من عيونى عين

وياخد النص راخر ويكفانى بقيت العين»

والنار يا روح قيس ملء أبياتى، وكيف أشرح الشوق لعيون الحور، ونظراتك تمنحنى همزة الوصل.. دقات الساعة، النبض، يعلن للملأ أنى أحبك.

آه! يا قاهرة.. الوجع خنجر فى الضلوع، وهواء الشوارع يمتص ما تبقى من العافية.. وسقوف المنازل على سترة الغيم، بنادق تتلصص لاغتيال الأهل والغربا..؟!

حين أراك يضيع القلب، والخجل يبعد المسافات، يبنى الحواجز.. وحين نتقابل نقف متباعدين، واللغة بعض النظرات.

أجوب صحراء الأهرام.. أناجى صورتك فوق شراع مراكب الشمس، أيتها المرأة.. يا فاتحة القلب، حتى اروى العطش،

للميني من وادى الشوك والمدينة التائهة التى لا ترحم.

لطعم القهوة مذاق خاص حين أقلب أفكارى، ولصوت (فيروز) الحنون دفئه وقت الاختلاء مع النفس..! يسرى فى الشرايين. وللمقهى التى اعتدت الجلوس فيها أمام الجامعة منذ جئت المدينة صور تدعو للعجب..! أطفال يتسولون، وامرأة تلف على الجالسين تحمل صغيرها تطلب الحسنة، وهم منصرفون باللعب والتعليق على الفتيات، والنكات السخيفة، قمت هاربا من الملل ومشيت لا أعرف إلى أين..؟ أنادى عليها يا...! يتردد الصدى....،...

المسافة باقية بيننا بامتداد النظرات المتسترة جبال الصمت، وصوت الحمام يبعث برسالة الشوق.. يطير من فوق قبة الجامعة إلى الأبراج - هناك - خلف دوار العمدة.. يسلم على الأحبة.. وأبى الواقف على الطريق يرقب الظل الذى يدنو على جسر النظر، ينتظر، وكبش الفداء السمين يشتاق لساعة النذر فى «ليلة الله»، وربابة المداحين الفقراء تتغنى ببطولات الفارس الذى سيجىء..!

ارتسمتك على قلة العطش قطرة ماء، وارتميت تحت جسر

السكوت، وكتبت بدمى معلقة تفيض بالآهات على أوراق البردى وعلقتها على النخيل آية للعشاق، فتشت الظلام، وعلى زجاج النافذة يطل الضوء البارد وصوتها يغسلنى..

«يا ليل الصب متى غده..»

يتسلل صوت صديقى في الحجرة مبللاً برائحة النوم...!

- «نام يا أخى عندنا محاضرات فى إلصباح..؟!!».

وكلماتك تلوح من بعيد عبر ممرات القاعات...

- «وإلى اللقاء فى المرة القادمة وتكون فى أحسن حال».

وليلى بين القلب والحشا طلل من الأسى والوجع.

لمس الروح

ربما تمنيت بناء عشّ كلما سرت فى شوارع المدينة، وحلقت حول أبراج العمارات..!

أكد ذلك إحساس ما تسرب للنفس عند رؤيتها فى لقاء عابر فاجأنى به الصديق البعيد..!

كعادته يغيب، ويعود مثقلا بمغامرات دون كيشوتية، ومن باب التغيير رمى شباكه على هذه البنت التى تعرف عليها فى حفل زفاف عائلى، بحاسته المدربة أدرك أنها خام فى مسألة العواطف.

ذبت في ترانيم وجود الصدفة، شعور ما جذبنى، مغنط الجسد، سرب شحنات الوصل لهيموجلوبين النفس، لمس الروح مما جعلنى متشبثاً بالحياة البمبى، على ثغرها تصيدت فراشات عذوبتها من التقاسيم المسمسمة، حين تعانقت الأيدى، تلامس السالب بالموجب.

انتفض القلب المتعب متلذذاً بغيبوبة النشوة، فاضت

إليكترونيات الوجد إثر صعقة كهربية، خدرت حواس اللحظة، امتدت طويلاً مع بريق بسمة طارت محملة بعذوبة حنين الروح للروح، وهج حرارة «الروج» أشعل البدن بنار الصبابة.

كان صديقى الذى عرفنى عليها، مازال يعيد أسطوانته التى سمعتها من حكايات بنات العائلة عنه، ولمحت له بذلك صراحة عندما رأت رسالته التى نقلها من الروايات الغرامية بين طيات دفتر المحاضرات.. فزعت عندما أدركت أننى ألحظ الموقف، توارت فى خجلها، أخرجت الورقة المطوية وقالت..:

– على فكرة أنت نسيت هذه الورقة فى الكشكول..! تصنع حركة بهلوانية مصحوبة بطرفة قديمة لتعيد لوجهه الأصفر حيويته ودس الورقة فى جيبه، حاولت التخلص منه حين أشارت لصديقاتها اللائى يقفن ينتظرنها.. وهمست لى مستغلة انشغاله بفتاة ترتدى «ميكروچيب»:

– على فكرة انت بتؤمن بتلاقى الأرواح..؟!

هزتنى الكلمة، وطارت الروح مع عصافير طيفها إلى العمارات العالية بحثا عن عش يضمهما، اصطدمت بالفراغ وخلو اليد، بعد سنوات الدراسة أفقت على صوته:

- إيه يا درش سرحت ولا إيه..؟!

ياه يا أخي تصور الدنيا من غير امرأة.. أعتقد أنها ماكنتش حيكون لها طعم..

صفر للفتيات على الرصيف وتغنى بكلمات الغزل والإعجاب لجمالهن الساحر.

نظرت في الزحام وحاولت استجماع بقايا ريح طيفها من الشوارع والميادين، وحضنت الحياة.

تراتيل السفر

تكــوين

موعود بالسفر، تلف البلاد بلد بلد،، تهاجر فى كل المواسم والمسافة طويلة.. والقطار ينتظر فى المحطة، ينادى فتى الوادى الواقف من مساء الصمت غارقاً فى كلام الناس، وتدور برأسه الأسئلة، والسلام على من يسيرون نياماً في غفلة موسيقى «الديسكو» القادمة من السيارات المسرعة، وعجوز يهيم شوقا للصبايا فى زحام أتوبيسات النقل العام، كل شىء كما كان فى البداية.. تضاءلت إلى نقطة فى الهامش..! علبة الأسمنت تخنقنى بعفونة الرطوبة، أنا يا صديق نويت العودة، أقيم فى قريتنا مع العصافير والحمام فى البراح، أخضر الأرض وأبنى أحلام المستقبل.

– الوداع يا مَنْ ولدت غريباً فى بلاد لا ترحم أهلها..

- لا تسرع الطريق طويل وحاول..!

- أحاول.. كيف..؟ حاولت كثيراً وأنت تعرف، لكن الظروف تعاندنى.. كأننى منذور بالحزن.. لذا قررت العيش فى قريتنا أفضل قد تحن على وتعطينى كلما أعطيتها.

بـــدء

حمال الهموم يا صغير، والليل نهار غرقانة شمسه في النيل، هزتنى ريح السكات فوق برج الجزيرة.

الحمل ثقيل والقاهرة لا ترحم، برودة الوحدة، تختلط بهواء النهر، وابتهالات الأسى، تعصف بسيف الأسد المدقوق على ذراعى الأيمن، قرع الطبول من دار الأوبرا يترجم الصوت، والرجل الواقف يعزم على أسود كوبرى قصر النيل يقول كن.. فكانت وحوش تطاردنى فى قلب ميدان التحرير، والناس واقفون يشاهدوننى فى بلاهة تامة، استنجدتهم ضحكوا، وصفقوا وهم يحيون السباع التى اتجهت ناحيتهم تطاردهم، وصوت المغنى الجهور فوق خشبة المسرح يردد نشيد النصر، طفل صغير يبكى تدهسه أقدام الناس، وتنطلق الزعابيب تغرق المدينة بعفار تراب الأسفلت ودخان السيارات.

فى لمحة عين لاحت القرية بين بقعة الزيت على وجه النيل، وحطت حمامة فوق أبراج الأعمام، وشاعت تراتيل الطُّهر فوق ألسنة المنشدين...

يسعد صباحك يا نيل

يا أبو المقام عالى

اغسلنى فى جنتك واروينى

رجعنى للحبيب الغالى..

إنى مسنى الشيطان بسحر السفر والترحال، تطيبت بريح المسك والعنبر قدام مقام سيدنا الحسين، ونويت أصلى ركعتين لله أن يخرجنى منها بسلام..

حنين الشوق يشدنى للنهر..

«اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب».

تفوح نسمات العصارى بنداء..

– ارجع لدارك يا غريب..

يعلو الصوت فى السماء ويزداد مع الضوضاء حتى يتلاشى..

ارجع لدارك يا...

حكاية

قال الراوى يا سادة يا كرام

بعد الصلاة على النبى المختار

أبدأ كلامى وأقول أشعار

والحكاية يا سادة عن ولد فارس أسد مغوار، سيفه كان بتار

– هلل السامعون وبرموا الشوارب – حب ست الصبايا أميرة البلدان قالوا له:

– المهر نوق عصافير وتوب حرير سندسى وطرحة بيضة متزينة بالترتر وصوابع أحمر تورد الشفايف، ركب البحر وقال: نويت السفر وعيون ست الحسن حجاب فى الغربة، وإن طال البعد فى أم الدنيا مسيرى معاود فى يوم، والدق الأخضر بينطق على دراعه اليمين إحسان...

ضاع صوت الراوى فى ضوضاء الزحمة.. دليت قدمى فى

الماء، اغتسلت من عادم السيارات، ورحت أحرك الماء الراكد اقترب منى خيال رجل عجوز لمحته أمامى.. احتضننى، فزعت، وتقزم جسدى فى يديه، همس فى أذنى..:

– لا تيأس من رحمة الله يا بنى..!؟

لم أفهم ماذا يقصد هذا الرجل الغريب..؟

ابتلعت الصمت ناظراً للبعيد، وقفت ألملم ما تبقى منّى

★★★

خـــروج

أنا وأنت نعبر الحارات، وغبار الأزقة يعرش فوق بيوت مصر القديمة، أمر على السيدة زينب و«سور مجرى العيون» أندب حظى، والأصابع التى تسللت فى زحام المواصلات سرقت بقايا الحلم، أجرة السفر وصورتها التى أعطتها لى عند الودا ع.. كم أشتاق إليك يا بنت الناس.

أتسكع أمام ڤاترينات المحلات وأسير، قدمى تئن بوجع يشعل النار فى جسدى، جالست المقاهى والصعاليك، ضحكت على المتحدثين مع أنفسهم فى الشارع وتعجبت.. حكمتك يا رب العالم.. اتجننت! والآن أحدث نفسى وهتافات العيال فى القرية تجرى ورائى وترمينى بالخيبة..!! تشابهت كل الشوارع والميادين.. أدور وأعود من حيث بدأت وطريق الخروج تاه فى الزحام.. لكن ثمة خطى، تلاحقنى، تنمو مع مرور الأقدام المارة

تشـدنى من همّ لحـزن تملكنى.. أجـرى حـتى انقطاع النفس والخطوات تطاردنى..

ترى من ذا الذى يتتبعنى.. وأنا مـجرد إنسـان لا يهش ولا ينش.. من يا ترى..؟! هل أقف؟! ومـاذا لو وقـفت وسـألته عمـا يريد..؟! قد يظننى شـخصا آخر يتشابه معى فى الملامح وماذا لو كان مـخبراً أو شرطياً وقبض علىّ.. لكن بأية تهمة.. أنا فى حـالى، وكل من أعرفـهم فى هذه المدينة معدودون على أصـابع اليد الواحدة، كذلك ليس لىّ أية ميول سياسية بالمرة.. والعيشة صـعبة، ولقمـة العيش أهم من أى شىء، والطاحونة دائرة من يقف تطحنه.. أأقف..؟! لكن لو سألنى عن البطاقة...؟!

سـأقول.. سرقت.. سـرقنى ابن الحرامية فى الأتوبيس، لكن قد لا يصدقنى ويجرجرنى إلى القسم وأدخل فى سين وجيم????

وبسـهولة يرمينى في الحـجز مـشـتبهـاً فيّ، أو أية تهمـة.. أسرعت وعينى مولية شطر محطة القطار البعيدة، أسرعت تلك الخطى ورائى، فتسمرت رجلى فى الأرض، اقترب منى فى هيئته النظيفة مرتدياً قميصاً وبنطلونا، خفت متحاشيا يده التى مدها ناحيتى، قال بصوت مرتعش بعث فى قلبى الاطمئنان للحظة..

- يارب يخليك لله...!

تصفحت وجهه، كاتماً غيظى، وتركته..

أه لو تعرف، لقد سرقنى ابن الحرام ولم يبق على شىء، شفته بعينى هاتين اللتين سيأكلهما الدود فى يده مطواة «قرن غزال»، ورأيت حافظة نقودى، أصابنى الخرس، الركاب جميعا رأوه، ولم يفعلوا شيئاً، خافوا وسكتوا.. اخترقت الزحام بسرعة ودلفت إلى مبنى محطة القطار.. مردداً تراتيل السفر وأغنية عبد الوهاب..

«يا وابور قول لى

رايح على فين..»

القديس

وحيداً... تجتز الذكريات، تُمعن النظر فيمن حولك، متراخى الجسد، وأفكارك ينهشها الجرح، الأرق كحل العيون بسهد البعاد.. أطلقت اللحية لتخفى ملامح الوجه الطفولى..

ترى أأدمنت شيئاً..؟!

الصراصير فى الحجرة تقرض الكتب المرصوصة على الأرض، هجرت القرية وابتلعتك المدينة، هيأت نبضك أغنية تعزف لحنها قيثارة الصمت، رائحة أزهار الليمون تفوح من رسائل التمنى التى تكتبها كل يوم مكتفياً بوضعها تحت الوسادة..

تسربلت الليل، والبحر متسع الهموم، يذيب دمع المحبين رذاذاً يتناثر فوق الشاطئ.

أقمت طقوس الوحدة والقرين ألح على بواطن الضعف ووسوس شيطان الرغبة، فخرجت حسناوات يكشفن جمالهن من كتاب ألف ليلة وليلة، وقصت شهرزاد حكايتها الجميلة عن الولد الريفى..

الجرح الخفى نز دماً على حبة العين فصارت حمراء من طول السهر، واستلقت حروف القصيدة فوق هوامش الكتب، وصوت أم كلثوم يبعث فيك الحياة

«طول عمرى بخاف

م الحب وسيرة الحب..»

★★★

اعتزلت الناس، وتحاول اعتزال الحياة، والنفس راغبةٌ إذا رغبتها، وأنت لا تريد أن تقنع بالحقيقة، استسلمت ومسَّك الضر وهلوسة الجنون..

– ابقوا اذكرونى يا صحاب واقروا عليه الفاتحة.

لا يكفيك ضيق الحجرة، بل شيدت قبراً وانزويت فيه، والنوم فارق عينيك تأسياً.. طعامك لم تمسسه، لم لا تسمع كلام الأصدقاء؟!

– كُل.

تقضم لقمة وتمضغها.. بصعوبة بالغة تحاول بلعها ممتطياً أوجاع الظلام وصورتها المعلقة على الحائط تظهر غمازتين حددتهما بالقلم الرصاص، لم تمارس هذه الهواية من قبل،

وضربت بنصيحة الأهل عرض الحائط حين همسوا فى أذنيك قبل أن تجىء المدينة.

– حاسب يا ولدى من بنات مصر، جمالهم بيسحر العين ويخلى الواحد ماشى سرحان ويكلم فى نفسه..

وحين نظرت للعيون، جرفك التيار، غرقت، وشربت من الهوى حتى تاه عقلك فى البنت، تهت في الشعر المسبسب، ورحت تكلم الشوارع والنهر بهوس جميل، وتطالع (فترين) المحلات، تغازل الحسناوات المارات، تبوح بغزل طفولى، تتأوه عشقا لحلاوة الجسد البض ونهود الظباء وتبوح للأصدقاء..

– البنت حلوة يا ناس أعذرونى.

فيصرخون فيك بزهق، هم يعلمون أنك لم تكلمها وأن ما تنسجه من خيالات يتلعثم اللسان أمامها.

– يا أخى صارحها وخلصنا..!

....

تبوح للصمت ما دار بينكما من حديث عند محطة المترو، أفرغت ما فى القلب من وجع، فقابلتك باستنكار وتجاهل أكيد لست أنت الولد «الكابوى» الذى تحلم به ويتناسب مع مستواها

الطبقى، وأخيراً قررت الحقيقة، طعنتك بخنجرها..

«لن أحبك ولو كنت فارس هذا الزمان».

•••

أنت مـازلت أنت.. تجـرى وراء السـراب مـرتدياً عـبـاءة القـديسين، وتمارس طقـوس المحب، تتـجـرع من نبـيـذ العـشق كؤوس الهـوى، وتردد أوردة الشـعـر فـي مـعـابد الصـمت.. يدك ترتعد.. تمتص السجائر بنهم وتشعل الواحدة تلو الأخرى حتى يختنقك الدخـان الكثيف ويصـفـر وجـهك بشـحـوب الأرق وهالات الليل أغـرقت العـينين برمـد.. منذ مـتى فـارقت النوم؟!.. تتـوارى خـجلاً تحت الفراش يغرقك العرق والرعشـة، والصـحـاب يبكون، وأنت تردد..

«يا زهرتى مهلا على لهب الصدف

فشذاك سيج دمعتى، وامتصنى

وأنا هنا:

هيأت نبضى كى تكونى أغنية(*)»

- حرام عليك يا أخى أعرض عن هذا..؟!

علب «الإسبرين» فـارغة، والرعشـة مصـحـوبة بإغمـائة فـجائية

متقطعة..!

– غطونى غطونى لا أستطيع مسك أعصابى..

– هل أخذت شيئاً..؟

– مجرد مهدئات تريح البدن.

– كل الأقراص حرام عليك وأخرتها يعنى..؟!

تقوم من الفراش وتمسك النوتة والقلم وتعيد كتابة القصيدة..

«إذا شد المساء قوامه

فأنا يطاردنى أريجك – زهرة الليمون – فى نبضى..

فلتبجرى نغماً بريئاً يجمع الأصداف من جسدى، ويجمعنى حروف قصيدة

أبدية الكلمات، تشتاق الرحيل إلى ضفاف

فؤادك النيلى...»(*)

•••

ياه.. مسكين أنت، أسلمت قلبك تتدرب عليه، تتعلم فنون الطب، هى الخبيرة بفعل الهوى حقنتك بمصل الجنون.. فأدمنت رؤيتها فى الصباح والمساء، هى تراك الفلاح الذى لا يعرف فن «الإتيكيت»، والقصور التى شيدتها تعصف بها أمواج

الهواجس... والبنت الشعنونة تغمز لك من تحت نظارتها، وتطير ابتسامة جريئة أثناء حديثها مع فتيان الشلة، وتزيد من لهب النار في صدرك.. آثرت العزلة، وجلست تندب حظك متعبداً في محرابك تقيم شعائر قدّاسك الليلي.

●●●

كل صباح تخرج للمدينة، تجوب الشوارع حتى تصل لكورنيش النيل.. تجلس مداعباً وجهها المطبوع فوق الماء، وأشرعة المراكب تزرع فيك نبض الحنين.. تغرق في دوامة الهواجس حتى يفزعك صوت:

«غريق.. غريق..!»

يشتد الزحام حول جثة الولد الذي أخرجوه، فتقيدك الرعشة وتعود مسرعاً إلى حجرتك فوق سطح العمارة العالية، وتغلق الباب، يتصبب منك العرق فتلوذ لحضن الفراش وتغيب عن الدنيا من فتحات شيش النافذة تفور أشعة الشمس وتغسل جسدك الممدد، فتفيق بعد أن تغازل عينيك المغشية بالنعاس.. ويدق الباب.. تصم أذنيك، تسمع همس الصحاب..

- أنا متأكد أنه في الداخل..

- يمكن يكون خرج..!

القفل غير موجود، إن لم يفتح سنكسر الباب.

تقوم بتكاسل وإعياء لتفتح دون أن ترد تحيتهم.

- كيف حالك اليوم..؟!

- على الله تكون بخير وتسيبك من العبط اللى أنت فيه.

تصمت دون أن تنبس بكلمة....

... ...

توشوش فى أذن أحدهما..

- مش أنا رميت نفسى فى البحر النهاردة والناس أنقذونى..!

بدهشة يجيبك صاحبك.

- إيه.. امتى..؟!

- فى الصباح ذهبت للنيل وأردت أن أرتاح من اللى أنا فيه.

- هو ده الحل حرام عليك أهلك فى القرية ينتظرونك لتعود بالشهادة، وأنت هنا تفكر فى أشياء فارغة.. فوق بقى يا أخى بلا حب بلا هم..

قاموا بعد أن كلت حيلتهم وتركوك تحدث نفسك.

تهيـأت للخروج مطوفاً شوارع المدينة والميادين، تحملق فى الوجـوه شـارد الذهن، تلف وتدور فى زحـام البـشـر المارين، والسيارات، ومحلات الأزياء بحثا عنها، وتكلم الهواء...،...

وحين أتعبك الدوران، ذهبت للشاطئ، وجلست تحت شجرة الجميز العتيقة تقرأ القصيدة للكورنيش والشجر الغارق فى بركة الضوء.

«نبض يبعثرنى شذى،
وشذاك يجمعنى دما
ودمى يراقصنى أنا
وأنا أردد أغنية
هيأت نبضى كى تكون أغنية(*)».

(*) الأشعار للشاعر الصديق/ نبيل يوسف العربى، من قصيدة «النبض أغنية».

الغد البعيد

(١)

دوارة يا رحلة سنين الغـربة، ورحـاية تطحن خلق ركـبـوا السـفينة، وترن دقات ساعة ميدان الدقى، تعلن على الملأ وقت الغروب، وحرارة شمس الصيف مخلوطة بكلاكس السيارات وطعم مرارة العرق المالح فوق وجوه البشر المرصوصين طوابير طويلة على الرصيف.

والعيون تنادى على أول الواقفين تستعجله..

- خلصنا يا أخينا مد إديك للشباك..

تزاحم الناس على مدخل «البنك» صرخ فيهم أحد العسكر رافعاً عصاه.

- ارجعوا... ارجعوا يا غجر..

تراجعت للوراء خوفاً من الضرب.. انتظر الفرج الذى فى علم الغيب.

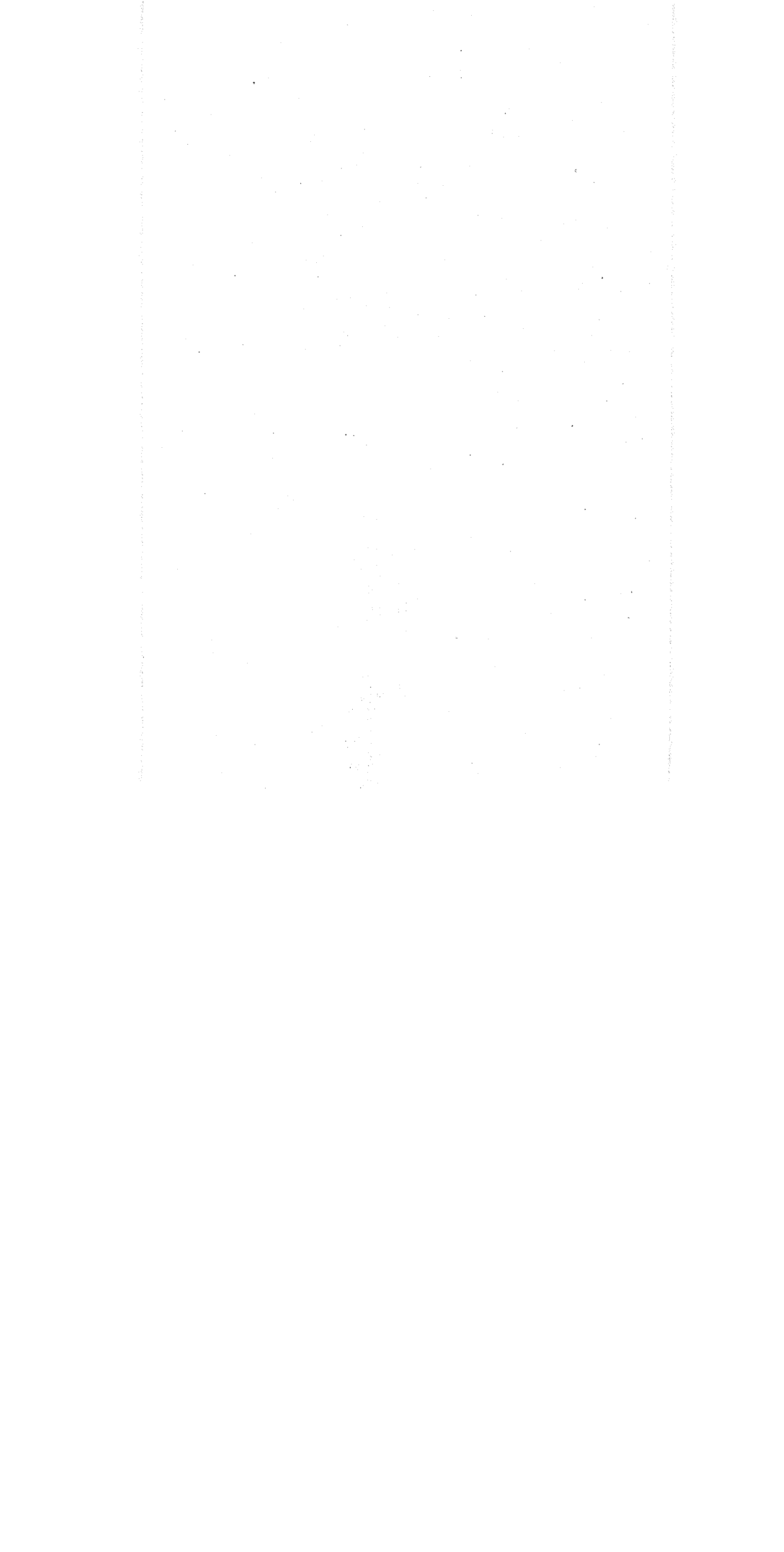
تراخى الطابور.. بينما الصوت يسقط على المكان فى لهجة أمره..

– على الجميع الانتظار للغد..!

خرت الأجساد، وصبغت بصفرة أشجار الزينة، والورقة الصفراء التى تنام فى جيبى انتظارا للصرف أتحسسها كل لحظة، والرؤوس تسكن بين الأكف تندب الحظ..

(٢)

امتزج اللون الرمادى بلون الأصيل، وتوارت الشمس خلف العمارات العالية، وقامت المصابيح الفوسفورية من نومتها طوال النهار، فتهاوت الأبدان المتعبة جوار الحائط وفوق السلالم.. وبخ الضباب عفارة على العيون المسبلة، وشرب الجوع بزعورته للبطون الضامرة والهمس...،...،...



(٣)

اعتلت أنات الندم لافتات الإعلانات، وزغللت أضواء النيون فوق أفيش السينما، وبدأ الصداع يدق فى رأسى مسامير الأرق والتوهة لا أعرف إلى أين سأذهب فى مدينة لاتعرفنى، وأعرفها بما سمعته عنها من بلدياتى الذين نزلوها من قبل وحكوا لى عنها مراراً، حلمت بالسفر إلى أم الدنيا.. اتغربت سنين فى بلاد بعيدة، لكن هذه أول مرة أجيئها وحين جئتها تهت فى الشوارع، والطريق إلى «بنك الرافدين» طويل، لم يدلنى عليه إلا ابن الحلال باين عليه غريب.. من لكنته أدركت ذلك.، وهنا وقفنا صفوفاً ننتظره.. ياه زمان علمونا فى المدرسة ألا ننتظر، والوقت سيف فوق رقاب العباد فى أى لحظة يخطف براعم الأمل من عمرنا.

تزاحموا.. ساد الهرج، وطارت غربان الصراخ.. انتشر الجنود بعدما نزلوا من عرباتهم الزرقاء وأحاطوا الحشود

المتزاحمة فى دائرة ضيقة بعيداً عن الشارع، هب أحد الواقفين متباهياً بعنفوان شبابه وعضلاته البارزة فى قائدهم:

- «والله حرام.. إحنا مش عبيد عشان تعاملونا هذه المعاملة الحيوانية..!»

انهالوا عليه بالعصى، وأمرهم برميه فى «البوكس» مقيداً للتآمر وإثارة الشغب، وأمسك ميكروفونا آمراً بلهجة متكبرة فى الصفوف..

- على الجميع الانتظار للغد..

تطلعت إلى واجهات المحلات، وخطفت قلبى المرأة الواقفة فى البلكونة المقابلة للميدان فى قميص نوم شفاف.. ضحكت لى فغبت عن الدنيا مستلذا بطعم الوجع الجميل..

(٤)

ترامت الأجسام على الرصيف وعتبات البنك.. شعرت برعشة، وكلمات أمي تضمني لصدرها..

– ربنا يرجعك بالسلامة يا ولدي.

سيطر النعاس والتعب على المكان، والساعة هي الساعة تدق في الميدان، وطار دخان الشخير مختلطاً بدخان عادم السيارات وغبار الشوارع أغرق الملابس. تساقطت الأنفاس الهامسة.. اخـ..

(٥)

مسح بكفه وجه السماء..، حاولت الشمس أن تبص من خلف الشبورة التى غمت الشارع مرات ومرات حتى انتشر النور.. وفزت الأبدان المتثاقلة من شدة التعب ووقفت فى طابور منتظم، تسللت يد بين الصفوف ونشلت محفظة الرجل الواقف يبحلق فى البنت المارة وصدرها البارز من البلوزة الشيفون التى ترتديها، نزل الجنود من العربات في ملابسهم الرسمية البيضاء، يمسكون بالعصى الخيزران والحبال، على الرؤوس خوذ، يحتمون بدروع بلاستيكية شفافة.. راحوا ينظمون الصفوف.. وقفنا.. خرج صوت من الميكروفون.

– عليكم الانتظار للغد..!!

التحمت الصفوف بالجنود.. ارتفعت العصى.. انهالوا على

بعضهم ضرباً، وتساقطت الجثث، جريت خائفاً أبحث عن مكان اختبئ فيه.. إلا أن ضربة مباغتة سقطت على أم رأسى.. شعرت بدوار وخيط ساخن على وجهى.. تعثرت فى الأبدان و... ... ...

(٦)

بصعوبة بالغة فتحت عينىّ على اللون الأبيض الناصع، رأسى تشبه البيضة المشثشة والصداع يفح حرارة قرون الشطة السودانى من الحرزتين فى وجهى.. كأنى مت.. كيف جئت إلى هنا.. أين أنا؟ السقف أبيض.. الأرض بيضاء.. الفراش الذى أنام عليه أبيض.. غامت الدنيا للبياض.. ضوء النافذة أبيض، أدهشنى الجندى الواقف جوارى فى ملابسه البيضاء يحرسنى.. أردت أن اسأله ماذا حصل بعد أن.. إلا أننى فقدت القدرة على الكلام.

فتح الباب ودخل طبيب فى بالطو أبيض أدركت أننى فى مستشفى.. تبعه ضابط تلمع على كتفه النجوم وثياب بيضاء.. سأله عن حالتى.. فأجابه..

- بخير وممكن تستجوبه الآن..

أشار للجندى الواقف جوارى بأخذى ووضع «الكلبشات» فى يدى وحذره منى. جرجرنى وراءه، وأركبنى البوكس حاولت أن أتحسس جيبى، بعناء شديد فتشت بيدى اليسرى الحرة جيوبى بحثاً عن الورقة الصفراء.. لم أجدها.. بكيت بحرقة وضحكت وأنا أبص من النافذة الصغيرة على الطوابير المنتشرة فى كل مكان تترقب الغد البعيد.

على بعد ساعات من النهار

(١)

الساعة تمر مسرعة وهذه المدينة تضيق ذرعاً بمَنْ فيها، وأنا وأنت غريبان.. غريبان، حين امتطيناها. كان الأمل المشرق يجذبنا نحوه، وستائر الغيب مدلاة على أبوابها.

والقطار الذى سيغادر الرصيف بعد دقائق قليلة يزأر.. الأقدام تحتك بالأسفلت.. تتسلل من بين السيارات المتلاحقة صفوفا حلزونية.

والواقف فى زيّه الرسمى يحدد لهم الاتجاه، يلوّح ويصفر، وحبات العرق على وجهه – تلمع – تركوه، يهرولون فى حركات عشوائية.. الريح تلطم الوجوه والنهار يلملم جلبابه... ...

أسقط فى الدوامة.. أتوه فى الأعماق.. أفيق على صوته يصرخ فىّ..

- أسرع.

... ...

- تجاوزنا الموعد بدقيقتين وعلينا أن نحاول ربما..

- لا يهم، فالقطار دائماً لا يقلع في موعده.

(٢)

حركة غير عادية تبعث فى شريان الميدان.. الناس حشروا على الأبواب.. اصطفّوا.. رفعوا لافتات الصمت.. واللافتة خط عليها.. «ممنوع..!».

صرخ الناس فى وجه الواقفين..

– والقطار..؟!

– كل القطارات واقفة..

تراخينا نقدم الخُطى ونرجعها مراراً.. اندسّ صوت بين سحابة الحروف الصاخبة وأمطر...

على جميع الناس إخلاء الميدان...؟

غمغم وخطت على جبينه علامة استفهام..

– ماذا حصل..؟!

لا عليك ظاهرة تتكرر كثيراً هذه الأيام، إنه موكب، سيعود بالقطار وعلينا الانتظار لتحيته واستقباله.

– ليتنا لم نأت.

– أنت صمّمت.. قلت نستفيد، وخرجنا من الندوة يا مولاى كما خلقتنى..!

تلفعنا الصمت، ودرنا نبحث عن مأوى نأوى إليه، وماذا بأيدينا..؟! علينا أن نرضخ للأمر طائعين.. ونقف نقرض أظافرنا غيظا.. نلعن الظروف، ونتسول الفرج على عتباتها.. حين وطئت أقدامنا هذه المدينة منذ ساعات قليلة كان الجوع قد بدأ يلاعبنا، وذهبنا نطلب الطعام، لقيمات لا تسمن من جوع، اشتريناها بكل ما معنا من نقود، أفلسنا، قال فى غيظ وتأفف..

– هؤلاء الأصنام ألا يتكلمون؟!

– من ؟!

– الواقفون صفوفا فى زيهم الرسمى رافعين الهروات مشبكين الأيدى بالحبال.

– هم ما عليهم إلا الطاعة العمياء.. ألا ترى قائدهم الواقف فى الوسط يتكرع ويتحسس كرشه.. إنه يلوح بيديه معلنا لحظة تشابك الأيدى، والصفوف تزحف فى خلايا الميدان، تحدد الخطوط الفاصلة .

(٣)

ساد الهمس والتأفف، وحروف متطايرة مغمسة بالملل..

– متى يأتى..؟!

وأنا أروح وأجىء وهو جالس على الرصيف يقلّب الصحيفة، ويتطلع للميدان من الحين إلى الحين.. يتلفت، أنظر فى عينيه..

«عيناك الذابلتان ياصديقى توقع على اللوم.. أصرخ، فجر قاع الصمت الذى لذت إليه.. تكلم..!»

ينظر فى الأرض ضارباً بقدمه.. حين أتينا كنا نحلم نحلم والحقيقة ثمرة حنظل أتذوقها الآن فى الانتظار، ومدينة ضاقت بساكنيها.. تسربلهم فى عباءتها السوداء المزركشة بأضواء المصابيح.. تشممهم اليأس وتحاصر زائريها.

(٤)

فجأة... انفجر الصمت.. هللوا عند رؤيتهم موكبه، بادلهم التحية، ورفع رمسيس يده محيياً الضيف العزيز، عبر الركب بسرعة، قال صديقي هامسا..

- عجيب ..! هؤلاء منذ قليل كانوا ضجرين بالعيشة..

- يا سيدى لا يهم.. المهم أن تشاركهم لننفض.

- أسرع.. أسرع فالساعة تجاوزت منتصف الليل.. وذهبنا نستبق إلى المحطة و... و...

(٥)

تعساء نحن يا صديق حين سولت لنا أنفسنا وتركنا مدينتنا الصغيرة الحالمة، ورحنا نلهث على عتبات هذه المدينة القاهرة للبشر، دخلناها بعد أن خلعوا عنا أنفسنا.. أتيناها لنهرب منها.. ووقعنا بين تروسها والآن نحاول الخروج..

صوت المذياع الداخلى يثرثر..

– على السادة الركاب انتظار القطار المتأخر وذلك لأعطال فنية..»

ضوضاء.....،....،....

قدماى ملتهبتان،، تصرخ فىّ، والسعال ينخر فى صدرى، والنهار على بعد ساعات من الطلوع، وهو يرقب الطريق المظلم، ويردد فى ضيق كلمات تتسرب من بين أسنانه..

– هأهأ.. قلت نستفيد ونتعلم النقد..؟!

هززت رأسى بسخرية ونظرت للطريق والفجر..

أحباب الله

... ولما أذن الديك نادى المنادى..

«يا عباد الله الصلاة..»

وقد صحا أهل الدار، وحضرت لفورها العجوز (أم سمير» الداية وأسرعت إلى القاعة، عاينت الحال وأمرت إحدى البنات بإحضار الماء الساخن، وما إن أغلق الباب حتى علا الصوات، والتمت الجارات، وطار الحمام، والطير من دجاج وبط زاط، وارتعشت البطة العتيقة تحت ذكر البط النافش ريشه، ويهزه عدة مرات، فانتفضت تهز جناحيها، تتبختر مسرعة ناحية الخُن.

والحكاية قديمة تتكرر فى كل الأزمان على لسان النسوة، وفوق الصفحات، ومسلسلات الإذاعة والتليفزيون..

وخضرة التى خاب أملها، كادت تسلم بالنصيب والقسمة.. فى كل مرة تركب دماغها.. ما تعانيه من تعب وألم يضيع بسهولة. تجهز الأرض بعناية، وهى الفلاحة، أبا عن جد، المدربة

على فنون الزراعة من الصغر، تسمع كلام أمها وتنفذه بالحرف الواحد، تحتضن البذور المهجنة بديك عتقى وفردين زغلول لأبى العيال الظل والسند فى الحياة.

هى التى تهتم بشغل الدار، وتطفح البنات الكوتة فى الغيظ، وتحسب الأيام منذ أحست بقطعة اللحم تتحرك، والمداعبات اللذيذة للكتكوت داخل البيضة.. تصوصو البطة وتتصنت للصوت.

وخضرة.. تقوم مع سماع تسابيح صلاة الفجر من ميكروفون الجامع. تكشف ماجور العجين.. تقدح الفرن.. وتصَّحى البنت الكبيرة لتقرص عليها..

ومع الزعيق تقوم فى تكاسل، تطس وجهها بماء الطلمبة بجوار المزيرة فى ركن الدار.

وخضرة.. جسدها عصعص، هرب منه الدم، وصُبغ السمار القمحى بالصفار الليمونى، والدوخة التي تلازمها منذ وضعت البنت الخامسة أنعشت الأنيميا، وتراكم المن على العود حتى نشف وضاع صباها.

وخضرة مضرب المثل بين بنات العزبة، كونت صورة للولد

الذى تؤاخى به ولدها الوحيد، توحمت على التفاح الأحمر، وحملقت فى عيون أم محمود الزرقاء بنت البندر، وتصاوير البنات الجميلات فى تليفزيون الجيران وتمنت..

حين أدركت ما تعانيه، قامت مفزوعة، محاولةً كتم أنفاسها، عضت الأصابع، وزاد الطلق، وجزت الأسنان نأنآت مكتومة.

تمشت فى وسط الدار حتى تحين الساعة وتطل الرأس. صرخت.. طقطقت الدجاجة.. هاصت الطيور والحمام.. اتجهت من فورها للبنت الوسطى، شخطت فيها حتى تهم بإحضار خالتها أم سمير قبل أن يطل القرن.

بخ القلق خيوطاً عنكبوتية فى السقف الداكن، اهتز جريد النخلة فى الحوش، وانتفض «عبده» المتعب فى قميصه الدمور المرقع يبتهل لله أن يجبرها وتقوم على خير.

استبشر خيراً عندما رأى فى الصباح أكواز اللقاح فى النخلة.. وشخط فى البنت المفعوصة النائمة وأمرها بملء الحلة بالماء ووضعها فوق الكانون حتى تسخن مع مجىء الداية.

وأم العيال زعقت وولولت، نكشت شعرها وارتمت فوق الحصيرة.. أطبقت اللحظة على صدرها وازداد النقر.

تشرخت الحيطان وطلت عيون الخوف تبتلع الرأس التى طلت للوجود.

ارتفع الصوات، والتمت الجارات، يقدمن الخدمات ويعجن الكلمات.

أسرعت أم سمير وأمرت بإحضار الماء الساخن بعد أن عاينت الحال، وطلبت مساعدة إحداهن..

- يا أختى إيه اللى جابرها، بلا هم..!

- قطيعة - بلا خلفة - بلا وجع قلب..!

- والنبى يا أختى، اللى معاه مش مرتاح واللى ما معهوش مرتاح..!

ساد السكون، العيون تترقب الخارج من القاعة، وطبع الكف على الباب صورة الولد.

الدعوات تواسى القلق مع صرخات المولود خلف الباب، تمنى الجميع أن يطلعوا على سر الغيب، وينكشف ما يحدث وراء الجدران.

صوصو فرد الحمام الوحيد فى الجرة المعلقة، نار الكانون أحماها الترقب، وملئت عين الفرن بالرماد الناعم.. خيوط

الدخان عمت بياض الفجر، وطمس الجير بعصفرة الهباب الذى ترسب فوق أفلاق النخل فى العرش، استسلموا للوسواس مع سماع الصرخة العالية.

صراخ المولود يسرسع، ارتعدوا، راحوا يلفون الحوش.

خرجت أم سمير فى صمت، بح البط، طقطقت الدجاجات وهش عبده البنات.

قالت إحدى الجارات:

– شد حيلك – والنبى صبية يا كبدى عليها – النبى يقويك على تربيتهم بنتين زى القمر، سبحانه العاطى الوهاب.

لجمته الصدمة، وغرق فى الصمت.. قالت إحداهن:

– كفاك هم يا خويا، أنا بقول نرضعهم من صدر أمهم ونخلص..!

زعقت أخرى وشهقت:

– أعوذ بالله دا كفر، حرام عليكم اتقوا الله، ياما حذرتها يابنى من كتر الخلفة وما سمعتش كلامى.. ربنا يقويك مقدر ومكتوب.

جرى ناحية القاعة يتبعه كوم العيال الذين رموا أنفسهم فوق

الجسد الساكن.. والولد الصغير يبكى مع قطعتى اللحم، وصوات النسوة يشق سماء الكون وبدأت خطوط الشيخوخة تزرع وجهه وتبلل شعر رأسه بالبياض.

ما كان كان، وقع فى بئر الكوابيس.. تطلع للبنات وهن يفعصن عيونهن، منكوشات الشعر، والولد فى حضن البنت الكبيرة، بينما الصغيرتان - أحباب الله - تنظران للسماء ترضعان أصابعهما وتناغيان بابتسامة صغيرة.

هاص البط، والدجاج، وطار الحمام، وخرجت البطة من الخُن تصوصو يتبعها الكتاكيت الصغار..

ولما شيعوا الجثمان..

سكت الكلام..

العودة

وأنا أرقبه يمتطى جواده الأشهب.. ملتفا فى عباءته السوداء، أذيالها تهفهف، وتصفع الريح على خديها، رافعاً رمحه المسموم فى ومضة البرق، غرسه فى صدر القمر.. نزف الضوء.. تجلط على صفحة السماء الرمادية.. انتشرت بقع قاتمة. تجمعت.. خلع عباءته وفرشها على الكون.. انقبض قلبى مع نعيق «أم قويق».. يهتز جريد النخل، والريح تأتى من ناحية الجبانة فى يدها حفنة من التراب، تعفر وجه القرية، فغشيت، تسيد السكون والظلام...

بيوت قريتنا الصغيرة معرشة بالقش وأعواد الحطب، تلبد فى الصمت.. انتبهت على صوت الصبية يزعقون علىّ..

خرجنا نمسك علب الصفيح ونطرق عليها.. يقودنا طبال القرية.. نهتف فى فزعٍ..

«يا بنات الحور الحور

فكوا القمر المسحور».

حين بان القمر فى صدر السماء.. عدنا فرحين، وجلسنا على أكوام قش الأرز نحكى حكايات عن الجنية التى تسكن البحر الكبير.. تخرج فى وقت القيلولة، تجلس تحت الكوبرى الخشب، تمشط شعرها الطويل، وحين ترى أى شخص قادم.. تتنكر فى سمكة كبيرة أو بقرة.. تغريه، وحين يقترب تمسك به وتجره إلى قاع البحر...»

نرتعد خوفاً.. نتصنت إلى ما يحكى...، ... يداعب النعاس عيوننا ويقطر لنا فيها..،...

•••

تجمعنا حول (سيدنا) فى الكتاب فى صفوف منتظمة نمسك فى أيدينا ألواح الصفيح ليكتب لنا عليها حروف الهجاء.. أرتجف خوفاً من «الفلكة» التى فى يده.. أكتب ثلاثة أحرف، قال عنهم هم أساس قريتنا.. لم أفكر فيهم، كنت منصرفاً عنه، يشغلنى أمر الرجل الذى فتحت عينىّ من النوم فوجدته تعثر فىّ أصحابى وهم يسرعون.. نادوا علىّ لألعب معهم فى الأرض البور الواسعة.. على حافة الخليج تراهنا على العوم فى مياه الخليج لكننا تراجعنا خوفا من البلهارسيا ورائحة الحمار الميت..

تطلعت إلى الجـرارات فى قلب الأراضى تجـرف التـربة أكواما، يحملها العمال فى المقطورة إلى مصنع الطوب الأحمر المقام فى وسط الغيطان، والدخان الخارج من المدخنة يتكاثف، يبتلع الشجر المتناثر فى الحقول.. تتساقط الأوراق وتتحطب العيدان.. الأرض طفحت بطبقة ملحية (طفلة)، وانتشر النجيل فى بقاع مترامية.. والدخان غمى الشمس.. والعصافير ترفرف فى السماء بحثا عن مكان تبنى فيه أعشاشها.. نلعب الاستغماية، نختفى عن عيون صديقنا (محمد) معصوب العينين.. نردد فى فرح..

«خبى ديلك يا عصفور

بين القمح وبين الفول».

لم يكن هناك قمح ولا فول.. والريحُ تمرحُ فى الخلاء..، نطوف حول أعمدة الأسمنت.. وجوهنا محمرة والصهد يخرج من وجهى ممتزجاً بالعرق.

•••

جلست وسط الدار.. رأيتهُ.. مد يده إلىّ، فزعتُ، وهربت منه مرتمياً فى حضن أمى التى ضحكت ساخرة..

– الولد خايف منك يا إسماعيل..!

نظر متجهماً.. شاحب الوجه.. سألت أمى فى خلسة..

– مين الراجل ده يام..؟!

– أبوك يا مضروب.

وتمسحت به مثل قطة وجدت وليفها..

تذكرت حديثها عنه منذ وعيت على هذه الدنيا قالت:

– مسافر فى الخارج..

فسكت.. لم أكن أعرف يعنى إيه الخارج، فقد كان معظم أولاد القرية آباؤهم فى الخارج حتى أننى نسيت كلمة أبى رغم غيرتى الشديدة من أصحابى، على بن عم عبده أبو الروس وحسين ابن سيدنا الشيخ على وغيرهما..

وحين تحققت من شكله ارتميت فى حضنه أتمرغ فى دفئه..

•••

أمسكت يده وطفت معه شوارع القرية حتى يرانى العيال، وكل من يقابلنى أقول له أبويه اهه.. حتى ضحك فى بادئ الأمر إلى أن زهق وشخط فىّ فتلجم لسانى عن الكلام.

أخذتنا أقدامنا إلى أرضنا الواسعة الخالية من الزرع..

دهش لأعمدة الخرسانة التى صبت فى الغيطان المحيطة سألته..

– لماذا يبنون على الأرض الزراعية يابا.

قال فى بحه وصوت متقطع..

«وسع..!»

قلت: ما دور البلد واسعة وأحسن من الحجر.. لفتت نظرى البقع الحمراء التى نزت على سطح الأرض، وبقع الملح الهشة.. سألته..

– هل الأرض تقتل مثل النبى آدم.

قال وعيناه مغرورقتان بالدموع..

– إحنا اللى قتلناها.. هجرناها مخدوعين، وراء السراب، وشدتنا جنيه الغربة وعدنا يا مولاى كما خلقتنى إيد ورا وإيد قدام..!

تطلعت إلى السماء.. الدخان يخنق بيوت القرية.. وأبى ركع على الأرض تنهال الدموع من عينيه.. وصوت سيدنا يرن فى أذنىّ ويحلق مع العصافير والحمام زرع، فنرد وراءه: زرع.

شد العمامة

تطاير دخـان الكانون، ورفـرف فى سـقف الدار.. حلق.. طاف..تلوى وكون دوائر امتزجت برائحة الخبز الطرى وحط على عروق الخشب، وعلب الصفيح والجرار المتدلية على الحائط، هديل الحمام يبتلع - الآهة - التى ضاق بها لسانى..

حرارة الفرن تشتعل بحرارة جسدى المدد عليه، تلسعنى خيوط الشمس التى تطل من طاقة (المجاز)، جف فمى وتحطبت شفتاى.. أشرت لأمى وهى تدعك شعر رأسى بالليمون.. ميه.. فانسابت أنهار العرق أغرقت هدومى.. وارتعش كوب الماء فوق الزير، يد أمى فوق جبهتى تبرد النار التى تطش فى بدنى، اللهفة والفزع فى نبرات صوتها.

- الولد سُخن..!!

سـالت آهات الوجع، حـضنتنى جـدتى، يدها البلسم تتحسسنى، تعصرنى، ربطت المنديل على رأسى، ولفته بمفتاح «الضبة» لتخرج الشمس من جسدى.

- والنبى يا ضناية الولد محسود.

صوتها الحنون يخفف الألم..

- هاتى حبة ملح يا خضرة.

مسحت جسدى الممدود.. بسملت، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم.. مررت يدها على جسمى عدة مرات..

«رقيتك واسترقيتك،

وحصنتك من كل عين رزية..»

بسرعة قطعت ورقة من الكراسة، وصنعت عروسة، أمسكت بإبرة الخياطة وراحت تخرمها من عيون الجارات سعدية ووداد ونظيرة، ومن عين أبى ومن عين أمى وأخوتى ومن عيون الناس.. شهقت وتثاءبت.. خرت الدموع من عينيها وهى تشهق فى وجه النار التى احرقت العروسة ورمتها فى حوض الطلمبة.. أخذتنى فى حضنها، انتفضت واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم.. تثاءبتُ.. ارتعشتُ، قرأت قل أعوذ برب الناس، وقل أعوذ برب الفلق، هدأت الرعشة وصوت تلاوتها يغسلنى..

«ومن شر حاسد إذا حسد».

•••

انتشرت رائحة البخور في الحجرة المنقوعة في السواد، اللمبة «نمرة ٥» في الركن تكشف ملامح الجدران الكالحة والمرأة العجوز تتمتم..

– الولد ممسوس..!

أعوذ بالله.. اجعل كلامنا خفيف عليهم..

خرت الآهات.. زاد الوجع.. النار تحرقني..

قالت المرأة العجوز لجدتي..:

– يترش له على عتبة الدار..!! وتدفنوا تحت العتبة سبع حبات ولقمة عيش وحبة ملح.. وإن شاء الله يكون الشفا.

سالت الكلمات من فمي ولاحت عمامة جدي فوق «السحَّارة» تشع نورا يفزعني.. «المارد.. الجبانة.. يارب سامحني، لو عرفت جدتي إنني لعبت فوق المقابر من ورائها بعد أن حذرتني.. يا رب سامحني..»

ازداد لهيب الجسد، وبللني العرق..، وغطست في الغيب...

•••

فتحت عينَي.. الحمام يرفرف في السقف.. أذان الديك يطرد النوم من الدار، وجريد نخلة «بنت عيش» يطوحه الهواء.. الفزع

والخوف يطلان من وجه أمى وهى تتحسسنى.. أفقت من غفوتى على كلمات أبى الممزوجة بالأسى والحزن..

– الدكتور قال عنده حمى..!

«يا ضناية يا بنى..» وضمتنى لصدرها..

غسلونى بالخل وغبت عن الدنيا..

●●●

أطلت ست البنات الشمس من خلف السحاب المفروش على الكون.. انكشف الوجه عن قرص برتقالى.. اعتلت السماء، ورشرشت ضوءها على الشجر والبساط الأخضر على جانبى الطريق.. طارت العصافير وسابقت الريح حتى ضاعت فى الأفق البعيد.

أعواد حطب الذرة والهندى تحيط المكان، ورائحة كريهة تزكم الأنف، الجميزة العتيقة تميل فوق مقام قبة الشيخ، شروخ القبة تظهر ما فعله الزمن، زغردت أمى على عتبة الضريح.. ورصت جدتى الشمع.. التهم الضوء الظلام، تجمعت النسوة من أهل القرية والعيال.. كست الفرحة المكان.. الجميع تمسح بأعمدة النحاس التى تحيط القبر، راحوا يبوسونه فى تضرع وخشية..

تعجبت..!

شدتنى أمى من ذراعى وقالت:

- قرب يا روح أمك بوسه عشان يحفظك ببركاته..!

واندست بين النسوة توزع الشربات.. مدد يا صحاب المدد.. حى...!!

تجمع الشحاذون حول المقام لأخذ نصيبهم.. لفت نظرى بياض العمامة الناصع على رأس القبر وعباءة الشيخ خضراء تسر الناظرين.. تطلعت من رأسى هتافات العيال وهم يزفون «زيدان» أبو كرش مدعى المشيخة فى القرية ولا يحفظ حتى سورة الرحمن، يجرون وراءه وهم يرددون.. «شد العمة شد تحت العمة قرد..!»

لكن هل صحيح أن من شفانى صاحب المقام..؟!

ماذا لو شددت تلك العمامة..؟!

مددت يدى، لامست أصابعى حوافها، بصعوبة بالغة دون أن يرانى أحد.. حاولت حتى أمسكت بطرفها، بالتأكيد تشبه عمامة جدى الموضوعة فى ركن القاعة، لقد وعدتنى جدتى بصنع واحدة لى عندما أكبر وأحفظ القرآن، وحذرتنى من الاقتراب منها، لكن

كم من مرة أغافلها وأضعها على رأسى حتى مسّنى من يسكن تحتها..

بعزم قوتى شددتها، وجريت مرعوباً إلى العيال، رحنا نلعب (كيكا ع العالى) ونتسلق فروع شجرة الجميز، وصوت نساء البلدة يولولن ويلطمن الخدود على عمامة الشيخ التى وقعت.

تنويعات على لحن الوجع

١- اختيار
٢- عقود الياسمين
٣- رسالة
٤- حلم
٥- امرأة
٦- خوف
٧- تحقيق
٨ - ضعف

١- اختيار

«أنا أحبك لكن..!!»

هكذا قالت له حين جلس معها على النهر، ويداها فى يديه

قالت الأم:

- عريس

قال الأب:

- عائد من الخارج وجاهز.

حين التقت معه لأول مرة قالت..!!

«أنا لا أحبك لكن

سأتزوجك..!!».

٢- عقود الياسمين

ثمة أشياء بسيطة تجذب الوتر عن آخره، لتصنع انحناءة تزيد التنائى فى العلاقة، تطاوعنى عقارب الساعة.. أتصفح الجريدة اليومية عسى أن أهتدى لبوابة الخروج من كهف التوحد، وأخالط الذين رأونا - ذات مساء - نغزل عقود الياسمين بلهو الطفولة، ونور سمايا يطل على الجسد المنهك بالترحال.

ألوذ لحضن الريح وأعلن السفر.

٣- رسـالـة

من يستطيع أن يكتب صمته

والمرايا تشتهى قهوة الوفاء

وراء حصار الوجع..

نصف نهار فى الشتاء

يعيد رجع صدى الذكرى فوق السطور..

القرية هى القرية

صباحاً تنتشى بزغرودة الفرح

ومساءً مصحوبة بالصمت الكئيب

أيها الصديق الساكن القرى.. إنما أحاور ظلى.. والسندباد

يجهز لرحلته التى قد تطول، والرحيل امتداد الفراق.

٤- حلم

وضع يده على بطنها يتحسسه، تغمره الفرحة فلكم تمنى هذه اللحظة وعاش يحلم بالكلمة التى حرم منها..

قالت الزوجة:

- أريده ولداً جميل مثلك.

قال الزوج:

- بنت جميلة مثلك.

قال المذيع:

«لقى خمسة وعشرون شخصا مصرعهم إثر التحامهم مع قوات الاحتلال الإسرائيلية..»

قالت الممرضة:

- مبروك ولد وبنت.

٥- امــــرأة

«صيدة»

قـالوا وهـم يقـفـون على نـاصيـة الشـارع ويعلقـون على المارة بكلام سخيف، يشربون «البانجو» مسطولين، وحين ابتلع الظلام الرجل والمرأة جـروا معتـرضـين طريقـهـمـا.. شـخـط فـيـهـم الرجل فتمادوا يتحرشون بالمرأة، قال فى قوة:

– زوجتى..

فقال أحدهم بكبرياء:

– وإيه المانع، ورينا يا روح أمك حتقدر تعمل إيه..؟!

وضغط على السوستة فقفز السلاح فى بطن الرجل باغته آخر بركلة من خلفه أوقعته على الأرض زعق بعلو حسه:

– يا ولاد الكلاب..

انهـالوا عليـه حـتى أسكتـوه وصـار جـثـة هـامـدة، صـرخت وانهمرت دموعها فوق مستنقع الدم، شدها أحدهم وألقاها

طريحة الأرض، تكورت على نفسها، تعاركوا فيما بينهم من يبدأ معها أولاً، شهروا أسلحتهم وهى على الأرض، ارتمى أحدهم فوقها مستغلاً شجارهم.. صرخ وهو يتحسس جسدها..

لقد ماتت..!!

٦- خـــوف

تسللت بين العيال وهو الجالس يهزهز جسده المنتفخ على ترنيمات المسبحة، أشار ناحيتى الذى لا يرانى.. فانتفخ سيل العرق يغرقنى.

أخرج الولد الذى دلنى على اللعب طوال النهار لسانه دون أن يعرفنى وولى هارباً.

حاولت تذكر ما تلاه علينا بالأمس وكلفنا بحفظه وتجاهلته مصاحبا الكرة والعيال.

على تلاوة الولد الجالس جوارى أفقت من غفوة قد انتباتنى.. أشار لى بشخطة أفزعتنى..!

– سمع يا ولد..

بكيت مستسلما «للزخمة» التي تهوى على الولد بجوارى.

٧- تحقيق

س : ... .. ؟

جـ : لا أعرف لى اسماً.

س : ... .. ؟

جـ : لا أعرف لى وطناً،

قالوا: ولدت هنا..!

س : ... .. ؟

جـ : أعمل كل الحرف، لكن أتسول عطف الناس.

س : ... .. ؟

جـ : سخروا منىّ.. قالوا.. مجنون..!

س: لماذا لم ترفع مظلمتك..؟!

جـ: حاولت.. لكن حبسوا صوتى..!

قال الشهود جميعا:

بريئ...!!

قال القاضى:

إعدام..؟!

٨ - ضعف

تحسس جسده المتعب، وترك لنفسه لحظة التمنى، فأغمض عينيه للراحة.. فحيح أنات التوجع جعله ينسى الدنيا بما فيها ويعيش اللحظة بدقة.. غاصت يده فى مياه ترعة العرق تمنى أن يهب الأرض بذورها، فض بكارة النشوة، فانساب الماء حتى سرت طراوته بين شقوق العطش.. تقلب على الجنبين حتى هجعت النار.. شرب منتشياً بحلاوة عسل النحل المختلط برائحة أزهار الليمون ونعيم الجنة التى قطف من ثمارها، لانت الأرض بعد أن أسلمها نفسه ووهبته حلاوة شهدها.. فاهتزت وربت، ما إن انتهى حتى استسلم للراحة والكسل حتى ضعف وأصيب بالأنيميا والهزال.

بقعة الدم

علق السحاب ستائره.. بدأ يداعب خصلات الشمس الذهبية التي تطل من حين إلى آخر على المكان.. تبث الدفء في هواء الشتاء.

الطريق مليء بالسيارات المسرعة والمارة يهرولون.. فجأة دوت صرخة شقت تماثيل الملل.. تلفت المارة وبص سكان المنطقة من النوافذ مذهولين..

– ماذا حصل..؟!

الناس على وجوههم مساحيق الدهشة والفزع..

ازداد التجمع.. هرول السكان من منازلهم، واندسوا في الزحام الذي تزايد في ثوان.. تجمعوا، خلق ياهوه ولا يوم الحشر.. الوجوه صفراء.. والجثمان مرمي على الأرض.. الدم يسيل أنهاراً على الأسفلت، والسيارات العابرة توقفت لتغير مسارها.. انتشر الضجيج والهمهمة...

قال أحد الواقفين:

– أنا شفت الحادثة بكل تفاصيلها..!

ساد السكون.. تبلدت الوجوه لحظة منصتين له..

«– كانت السيارة مسرعة بجنون.. خطفت الولد من جنبى وأسرعت.. لكن ربنا ألهمنى وأخذت النمر..».

قال آخر فى نبرة متكبرة:

«– الشاب هو اللى غلطان.. اندفع مسرعا دون أن ينظر إلى الطريق.. لكنه كان سرحاناً شارداً فى ملكوت الله يبدو عليه الهم..».

صرخت امرأة فى الرجل بحرقة..

– حرام عليك يا أخى اتقى الله.. ربنا على الظالم والمفترى.. أنت معندكش عيال..

نظروا إليها وعيناها مغرورقتان بالدموع..

– أنت تعرفيه ياست..؟!

قالت بنبرة مبحوحة..

– أنا كنت واقفه فى البلكونة ساعتها بالصدفة، السواق هو اللى خطفه.. جت له مستعجله.. يا كبدى خده من فوق

الرصيف.. يا عينى عليك يا قلب أمك..!».

غطوه بورق الجرائد التى صبغت ببقع حمراء، غلى الزحام، وتطايرت اللعنات والسباب على السائقين جميعاً.. السيارات المقبلة تتراجع بصعوبة من الفتحة الضيقة للرصيف، وسيارة الإسعاف تشق أكوام الناس المتزاحمين بعد معاينة الجثة، رفض السائق ومعاونوه حملها بدون تصريح من النيابة، حيث إنهم يمرون بالصدفة، ومرت بسرعة وهى تزعق رعقتها المشؤمة تساقط رذاذ المطر والسحاب افترش السماء.. امتزج اللون الرمادى بخيوط الظلام.. وأضواء المصابيح تصب ضوءها على الأسفلت اللامع...،...

جاءت سيارة الإسعاف بعد معاينة الحادث من قبل الشرطة.. وأمروا بحمل الجثمان فى السيارة التى أخذته وهى تزعق بسرينتها المعهودة.

بدأ الحشد يتفكك والزحام يتلاشى.. أثناء مرور جنازة يسير وراءها عدد قليل من الناس امتزجت بالزحام المتفكك، وانهالت الترحمات على الميت..

«إنا لله وإنا إليه راجعون..»

تبعها البعض والبعض اكتفى بالوقوف والتشهد للحظة، وانصرفوا إلى حال سبيلهم..

ازدادت رشاشات السماء ورخت على الأسفلت سيلا من المطر الشديد، وهرول المارة فى قلب الشارع، بينما الأقدام تدهس بقعة الدم التى ذابت فى قلب الطين.

فواصل



(١)

«ما بى بك

وما بك بى»

قال الولد للبنت وتعاهدا على قهر الظروف

وقفت سيارة مرسيدس بينهما

أشار الرجل للبنت

وافترقا.

(٢)

ما بيننا أمنية وتليفون

وما بين الناس حياة

تمنيت الحياة

وضربت رقم التليفون.

(٣)

يمكن أن تعقد مع الحياة صفقة، فتهبك من سرها ما لم تبح به لأحد،

تركب سيارة مرسيدس آخر موديل وتسكن عمارة شاهقة.. وتعلو إلى أن تصل لحدود

السر الذى لا يعلمه إلا هى، وتأخذ ما تتمناه المرأة من الرجل عند الحاجة.

وفى لحظة صدق تتعرى النفس وترحل.

(٤)

ما بى يصل ما بيننا من روابط قديمة

قال الولد:

لا يكفى أن تكون العلاقة مجرد رقم تليفون يقرب ما صنعته الظروف من تنائى.

يلغى فواصل المسافة.

لكن يظل ما بى بك

وما بكِ بىَ

نتوحد.

لذا يمكن أن نعقد مع الحياة صفقة

ونعيش.

حديث تليفزيوني

حاول أن ينتقى عباراته وينمقها بأسلوب عذب، كما تعود منه جمهوره، حرارة أضواء الاستديو -رغم شدتها- غير كافية على إخفاء الرعشة التى تملكته أمام الكاميرات، هل حديث الليلة سيكون له صدى لدى معجبيه الذين لم يروه منذ زمن طويل، أقعده المرض اللعين.. ربما ظن البعض أنه مات.. قبل ذهابه فى الصباح وقف أمام الدولاب كثيرا كى يتخير الزى المناسب للظهور، ضجر بملابسه جميعها، كيف سيظهر اليوم، لقد كان مبتدع الموضة لشباب عصره، وهذه الموديلات لم تعد صالحة حتى للروبيكيا.. كيف سيواجه الجمهور، نظر إلى المرآة كثيراً إلا إنه تخير ما يناسبه شخصياً، وحاول إخفاء الصلعة التي حلت مكان شعره الناعم ببرنيطة إنجليزى، كان قد اشتراها فى آخر رحلاته إلى لندن، عبر شاشة التليفزيون عرضوا أحد أعماله الفنية، فقام منتشياً وقلبه ينبض بالشباب، نسق عدة ملابس.. والآن يلقى شهادته على العصر، وراحت المذيعة تشيد

بجهوده فى إثراء الحركة الفنية ووصفته بأنه باعث للنهضة الحديثة فاغرورقت عيناه.

فى نهاية الحلقة قالت المذيعة:

لقد كان عظيماً ورائداً للحركة الفنية الجديدة.

تنويه:

«وفى الصباح وقبل عرض البرنامج فى المساء نشرت الصحف فى ذيل صفحاتها خبر وفاته.».

الشيخ

لم تكن الفرصة مهيأة كى أجالسه، دائما ما كنت أسلم عليه سلام العابرين، أقابله شارد الذهن، مهموماً بالحياة التي ألقت على بحملها الثقيل.

واليوم ما إن رآنى، فرض نفسه، استقبلنى عند النهر، جالسنى تحت مظلة اللافتة وقص تجربته مع الفن، وكيف اعتلى خشبة المسرح لأول مرة حين حذره مؤلف العرض من خطورة الدور فى مسار الأحداث، قلد الأخرس فى موقف تراچيدى صرف، فضحك الجمهور، فطقت عين الفنانة البطلة شراراً، ذرفت الدموع من ذهول الموقف مما جعل جمهور العرض يبكى.

بدأت الأحلام تتشكل على هيئة بلورات فوق نافذة المستقبل، جسده النحيف تسكنه ثورة عارمة للفن تتصاعد مع أبخرة كوب الشاى.

قطرات الشيخوخة أغرقت وجهه بخيوط السنوات الطويلة.

هلت على شفتيه ابتسامة سخرية حين أخرج من جيبه صورة

له فى شبابه.

بدأ يعيد عليّ ما قصه بحديث عذب لا يمل وقال:

– شـوف يا بنى أنا أعطيك خـبـرة حـيـاتى، أنتم زهرات المستقبل..!!

ذرفت دمـعـة من عـينيـه أذبلت غـصن الزيـتون المرسـوم على قميصى.

قبلت يده فى جلال واستحياء وقلت:

«ربنا يخليك لنا يا أستاذنا..».

ودعته على أمل اللقاء، ورحت أرقب خطواته وهو يتوكـأ على عصاه فى همة ونشاط.

لاح فى الأفق سرب من الطيور حملت خيال الشيخ من بعيد وهو يستقبل الدنيا بابتسامة.

حلاوة حمصية

لذيذ طعم الحمصية يا يوسف من يد بنت الجيران رغم الوجع الخارج من الأسنان المسوسة.

وعريس البنت الكبيرة صغير عنها فى السن، هى بنت البنوت التى فاتها قطار الزواج، تعيش وحيدة لا تكفى خيرها شرها، تعيد وتزيد فى سيرة الناس على العتبات، والناس يسمونها العانس.

أبوها العجوز تزوج أرملة جميلة لا تنجب، أخذها وهج فى دار بعيدة لكثرة النقار مع البنت، والأخوة الأربعة شغلتهم الدنيا والزوجات.

البنت العانس الكبيرة ترش العتب كل صباح وتسمى باسم الله، تشهق فى عيون الجارات اللائى يجالسن العتبات، وتدارى الشعيرات البيضاء بمنديل كحلى منقوش بورد أبيض.

عودها السمين الملظلظ جعل أبناء الحى ينفرون منها، وهى الكبيرة ترتدى فستاناً «محزقاً» على جسمها الشيكولاتة، فيشهق

الشباب الواقفون على النواصى.

هى التى تجيد تفصيل الملابس للزبائن، تطاوع الفتيات فى إبراز الصدور، وتكشف ما فوق الركبة.

وبنت البنوت تختلى بنفسها، وتلمس الجسد البكر أمام المرآة، وتشعل عود الكبريت فى جسمى من ثقب الباب، وتتنهد فوق الوسادة تنهدات حارة أحس بها حين تضمنى لصدرها الإسفنج، كل مساء تنادى على لتعطينى قرص الحلاوة الحمصية.

تلتصق بى، وتطبع فمها بفمى وتقول:

- حلوة يا يوسف.

فتذوب القطعة فوق لسانى..

- لذيذة

وفى الصباح ترش عتبة الشقة وتبسمل، تذهب للأفراح، تحنى شعرها المفرود، وتقرص البنات فى أفخاذهن، وتمر الجمعة وراء الجمعة ولا يجىء من يجيئها فى المنام كل ليلة، حتى بانت تجاعيد الكبر، وراحت تخفيها بالكريم والبودرة والكحل أمام العريس.

وبنت الجيران العانس تدعو كل صباح ومساء أن ينفك النحس على يد الخاطبة، ويوعدها بابن الحلال، هى الجالسة جوار أبيها تقول كلاما لا أفهمه:

– ربنا يقرب البعيد..!

فأغرق فى عينيها العسليتين اللتين تغمزان للعريس من تحت إلى تحت مستغلة انشغال الجالسين فى الحديث عن الشبكة والمهر.

أتمسح بها.. تتأفف.. أقترب..

تبتعد معلنة عن زهقها..!

– ياه ابعد عنى يا أخى قوم روح لأمك..!

أرتعش من ضغطتها القوية على يد العريس الجالس يبادلها النظرات فرحاً بقرص الحلاوة الحمصية الذى ناولته إياه فى الخفاء.

لذيذة بنت الإيه..!

ألتصق بجسدها الساخن على الكنبة فى استحياء حاضناً الهواء وزجاجة الكوكاكولا.

المحتوى

صدر من هذه السلسلة

الأعمال القادمة

الحياة.. الحب.. الموت .. ألحياة .... ناهد السيد

لأرملتي يبوح الورد .... عادل البطوسى

رائحة الخوخ .... محمد عبد الواحد

من أجل سحابة .... أمل جمال

الحكروب .... عصام راسم فهمى

مكابدة الاسطنهى .... ربيع عبد الرازق

أحيانا لا أكون ميتا .... أشرف حسن

حديقة الذكريات................................. حسين أحمد إسماعيل

امرأة تلد رجلاً يشبهك... عزة سلطان

قيامة الأعضاء .... مصطفى فتحى

عزاف النار.. العربى عبد الوهاب

بنحب موت الحياة.. عزت إبراهيم

الأطفال يولدون نياما.................................. حمدى عبد الرازق

رقم الإيداع: ١١١١٥/ ٩٨

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت: ٣٩٠٤٠٩٦